المصدر: التجديد العربى
التاريخ : ٥ مايو٢٠٠٩

انفلونزا الخنازير: القيامة الوهمية ومصالح الاحتكارات

"وبعد حين ستنطفأ نار انفلونزا الخنازير كما انطفأت نار جنون البقر، والحمى القلاعية، والجمرة الخبيثة، ونار السارز وانفلونزا الطيور، ومن جديد ستبحث الاحتكارات عن مادة جديدة لإضرام نار الخوف القيامي ثانية وثالثة ورابعة، لأنه في عصر أزمة النظام العالمي المفتوحة على اللانهاية....تبقى تجارة وحيدة رابحة هي تجارة الخوف."

* * *

في البداية كان هناك جنون البقر، ثم الحمى القلاعية، ثم الجمرة الخبيثة، ثم السارز، ثم انفلونزا الطيور، والآن انفلونزا الخنازير، فكلما تأزمت أوضاع العالم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وتركزت أنظار الناس على بؤرة المشاكل الحقيقية يتم تفجير قنبلة دخانية بعيداً عن بؤرة الأحداث لتشتيت الانتباه.

دخلت البشرية قبل أشهر الطور الأخير من أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية طالت كافة بنى النظام العالمي القائم الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها الغربيات. لكن أثناء الأزمة الأخيرة برزت ظاهرة جديدةلأول مرة منذ انطلاقة النظام العالمي القائم قبل خمسة قرون ونيف، وتحديداً منذ سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ وسيطرة الغربيين على مقاليد هذا النظام وتعميم طريقة حياتهم وقوانينهم كطريقة حياة وقوانين عالمية. فلأول مرة منذ نهوض هذا النظام قبل خمسة قرون بدأ ينشأ وعي عند أغلبية البشر مـ فاده أن هذا النظام لم يعد صالحاً لإدارة الحياة البشرية ولا بد من تغييره، وهذا الوعي، الذي كان فيما مضى تمتلكه نخبة صغيرة محاصرة لا يسمع لها صوت، والقاضي بضرورة التغيير الشامل بعيداً عن عمليات التجميل والترقيع بدأ ينتشر لدى شرائح واسعة من الناس في شمال العالم وجنوبه بعد أن شاهدوا بأم أعينهم موارد التهلكة التي أوردهم إياها النظام القائم، فقد أباد الضرع، وأهلك الحرث، وحوّل كوكب الأرض قاعاً صفصفاً بل مـ قبرة واسعة، كما أن كوارثه لم تعد مقتصرة على جنوب العالم بل امتدت لتطال سكان الشـ مال المترف الذين وحتى قبل انفجار الأزمة الأخيرة كانوا بمنأى عن الأزمات. لكن المسيطرين ليسوا على استعداد للتخلي عن سيطرتهم، ولا المستضعفين امتلكوا بعد الوعي والقوة الكافيين لإزاحة الطغمة المسيطرة على العالم. وبما أن هذه الطغمة لا تمتلك حلاً للمشاكل الراهنة، فرغم إصرارها على تشبيه الأزمة الراهنة بأزمة عام ١٩٢٩ للإيحاء بأنها عابرة

وسرعان ما تزول، فهي أول من يدرك عدم صحة هذه التشبيه، كما أنها تعلم علم اليقين أن هذه الأزمة ليست أزمة نمو ولا أزمة دورية، بل هي أزمة اندثار نظام كامل بكل عاداته وتقاليده وأفكاره و طرق استهلاكه وإنتاجه. وبما أنها لا تمتلك الحل فهي تشتري الوقت مجرد شراء وأهم أسلحتها في هذا المجال هو تخريب الوعي وتشتيت الانتباه.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

منذ أن أنجز بافلوف تجاربه على المنعكس الشرطي لدى الكلاب وخرج باستنتاجاته المعروفة التي تقول إن المنبه القوي جداً يشتت الانتباه ويحول الكائن الحي إلى عجينة لينة سهلة التشكيل، وأقوى منبه هو التهديد بالفناء والخوف من فقدان الحياة، منذ ذلك الوقت تحولت عمليات غسيل الأدمغة للشعوب وتبديد وعيها إلى عمليات روتينية تقوم بها دوائر إعلامية واستخباراتية واقتصادية، فتحول سلاح الخوف إلى سلاح دمار شامل للوعي، ففي السبعينات لعبت هوليوود دور مركز القيادة فأنتجت أفلاماً كثيرة عن حروب الفضاء، وعن فناء الكون بأسلحة غريبة، وعن نمل ونحل وطيور قاتلة تدمر الحياة البشرية، وكان من السهل دمجها في المخيلة بالعدو السوفيتي الذي كانت وسائل الإعلام الغربية لا تتوقف عن التحذير من خطره واستهدافه لنمط الحياة الغربي في حين أن الإتحاد السوفيتي وطوال حياته كان مستهدفاً من قبل الغرب ولم يخرج عن وضعيته الدفاعية أبداً. وبعد نهاية الحرب الباردة انزاح مركز إنتاج الرعب إلى مختبرات الصحة وحل الأطباء والعلماء مكان مخرجي وممثلي هوليوود في نشر الرعب، وبدل العدو الواضح المعالم سواء كان نملاً أم نحلاً أم طيراً أم سلاحاً نووياً أم مخلوقاً فضائياً (واضح المعالم مثل الاتحاد السوفيتي) حلت كائنات هلامية من جراثيم وفيروسات لا لون لها ولا طعم لها تحقق معادلة أنها موجودة في كل مكان وغير موجودة في الوقت عينه، وأنه لا خطر منها لكنها في لحظة قد تبيد الحياة البشرية، وأن كل فرد مستهدف في بيته وفي عمله وفي مكان نومه، كما أن هذا القاتل الجرثومي أو الفيروسي لا يمكن تحديد ماهيته بدقة، وكل الصفات السابقة تنطبق على مواصفات العدو الأسطوري الذي يشن الغرب الحرب عليه ونعني الإرهاب.

في هذا السياق يمكن فهم تفجير ما يسمى بأزمة انفلونزا الخنازير التي هي تكرار حرفي لأزمة مفتعلة سابقة قبل سنوات هي أزمة انفلونزا الطيور، التي انفجرتمع بلوغ الاحتلال الأمريكي للعراق مأزقه القاتل وانشداد أنظار الناس إلى ما يجري في العراق فتم تفجير تلك القنبلة الدخانية المسماة انفلونزا الطيور التي صارت معروفة المسار، وستتبع أزمة ما يسمى بانفلونزا الخنازير مساراً مماثلاً، فسرعان ما تلقفت منظمة الصحة العالمية الخبر وبثت تحذيراً عاجلاً، وظهر على الشاشات أشخاص تبدو عليهم الجدية ويسمون أنفسهم علماء ليعلنوا نبوءات قيامية، فإن غيّر فيروس انفلونزا الطيور، أو الخنازير من إحدى جيناته، أو اندمج مع نوع آخر فقد يبيد ملايين البشر، وبدأ الضخ الإعلامي، فتصدر خبر الوباء الخطير نشرات الأخبار، وأعدت فقرات مصورة من كل أنحاء العالم تظهر إعدام الطيور بيد رجال يرتدون ملابس غريبة أشبه برجال الفضاء أو سكان الكواكب الأخرى كما صورتهم هوليوود في السبعينيات، كما اتُخذت إجراءات دقيقة على الحدود وفي المطارات، وكأنهم يبحثون عن إرهابيين، فكل من شُك بإصابته ألقي القبض عليه وأودع الحجر الصحي، ثانية كما هي قوانين مكافحة الإرهاب حيث يلقى القبض على الشبهة، ويمكن لأي منكم أن يقارن في ذهنه الإ جراءات المطبقة لمكافحة انفلونزا الخنازير أو الطيور مع تلك المتبعة لمكافحة الإرهاب وستجدون تطابقاً مذهلا، فالبحث عن الفيروس مثل البحث عن الإرهابي يشبه البحث عن إبرة في كومة قش، وإلقاء القبض على الشبهة، أو لأن الشخص قدم من مكان محدد، واعتبار كل شخص مدان حتى تثبت براءته، والتركيز على المنافذ الحدودية، وكأن الفيروس أو الجرثوم إرهابياً يحمل جواز سفر و يتسلل عبر نقاط الحدود الرسمية فقط !

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وفي العالم الثالث يبرز دور كل من الأكاديمي والمثقف التابعين المغروسين في جامعات وصحف وتلفزيونات العالم الثالث، وهم فئة لا عمل لها سوى تلقف ما ينتجه المركز الغربي من أخبار وتكرراه ببغائية عجيبة، وإن اجتهدت فنحو مزيد من المبالغة. حتى أن التلفزيون السوري وأثناء أزمة انفلونزا الطيور نصح ربات البيوت بارتداء كمامة أثناء طبخ الفروج مع عرض صور توضيحية، وكأن ربة المنزل تقوم بتفاعل كيميائي خطير.وفي المحصلة النهائية، وهي النتيجة المرغوبة من قبل القائمين ع لى الحملة، انتشر رعب غامض لا يُدرك كنهه بمواصفات ما ورائية، ر عب عصي عـلى الإدراك،

عصي على التوقي وكأنه القضاء والقدر، فلو أنك تخاف من حيوان مفترس وتعرف أنه موجود في مكان محدد فإنك تحجم عن الذهاب إلى ذلك المكان وترتاح، لكن ماذا بإمكانك أن تفعل تجاه موت قد يأتيك على جناح طائر أو مع نسمة هواء أو من شخص حولك..الخ. موت لا سبيل لتوقيه لذلك يصير الفرد في حالة أشبه بالهستيريا فيفقد القدرة على التفكير المنطقي، والمحاكمة السليمة، ويرتد إلى ذاته منطوياً عليها، أو ينزوي في ركن منتظراً قدراً لا مفر منه. تماماً كما هو الخوف من الإرهاب.

لكنك إذا استطعت المحافظة على عقلك وسط هذه الهستريا الجماعية التي تلعب فيها الحكومات دور ضابط الإيقاع. أو على الأقل بقيت ممن يعتقدون أن ١+ ١ = ٢ كما كان يردد بطل رواية جورج أورويل ١٩٨٤، الذي لو شاهد المجتمع الأوريلي المعاصر مرفوعاً إلى أس مليون لأكد أنه لم يتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد.

إن كنت ممن حافظوا على هذه البديهة البسيطة وراجعت سجل ما يسمى بوباء انفلونزا الطيور لوجدت أن دول العالم أنفقت مليارات الدولارات على إجراءات الأمن، وعلى شراء لقاح تاميفلو الذي تبين أن وزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد ع ضو في مجلس إدارة المختبر الذي طوره في كاليفورنيا وهو من كبار المساهمين! كما أن صناعة تربية الدواجن في شرق آسيا قد انهارت تماماً مع العلم أنه لم تظهر إصابة وا حدة في الولايات المتحدة الأمريكية وبقيت قطعانها سليمة.

أما فيما يخص الوفيات بهذا المرض فهي لم تتعد بضع عشرات، وكلهم ذوي أمراض مُدنفة فإما مصابون بالسرطانات، أو بالإيدز، أو بأمراض قلبية وعائية، ولمجرد المقارنة فإن الانفلونزا العادية تقتل مليون إنسان كل عام.

إن آلة نشر الرعب وغسيل الدماغ باتت بحاجة إلى مادة جديدة بعد أن استنزف ما يسمى بوباء انفلونزا الطيور أهدافه، فلمتعد تجدي نفعاً محاولات النفخ الإعلامي برماد ناره التي انطفأت عبر تسريب خبر وفاة في مصر وأخرى في اندونيسيا، فكان لا بد من اختراع قيامة وهمية جديدة فبدأ الحديث اليوم عن انفلونزا الخنازير، وكالعادة سارعت منظ مة الصحة العالمية المتواطئة مع الاحتكارات الدوائية والصناعية لإطلاق تحذير بشأنها، وانطلقت جوقة إعلامية استهلها الرئيس المكسيكي بإعلان حالة الطواريء، وشاهدنا الجيش بأسلحته في الشوارع، وهذا سبب جديد لإعلان الأحكام العرفية يضاف لقائ مة الأسباب السابقة المعروفة ولا ندري إن كانت جماعات حقوق الإنسان ستحتج على هذا

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

السبب المبتكر لإعلان حالة الطوارىء! مع التذكير أن غوردن بـــراون رئيـــس ا لوزراء البريطاني كان قد نادى أثناء انتشار وباء الكوليرا في زيمبابوي بضرورة التدخل الغربـــي العسكري لوقف هذا الأمر (استعمار صحي) ! وتلقفت محطات التلفزة الأمر وخرج وزيـــر الصحة البريطاني ليطمئن الناس فإذ به يقول لهم إن بريطانيا لديها ما قيمته نصف مليار استرليني من التامفلو، وكأنه يقول لهم امرضوا والباقي علينا، أما وزيرة الأمن الداخلـــي الأمريكية فقد طمأنت الناس بأن إعلان حالة الطوارىء بسبب انفلونزا الخنازير شبيه بما حدث أثناء تنصيب الرئيس، وكأن الإجراءات الأمنية التي اتُخذت أثنـــاء تنصـ يب أوبامـــا إجراءات إعداد لزفاف!

وخلال الأيام القادة ستسري قصص أنفلونزا الخنازير في وسائل الإعلام كما تسري النـــار في الهشيم، ولن يتأخر مثقفو التبعية من أكاديمي جامعات العالم الثالث عن صب الزيـــت على النار، كما قلنا، إذ سيستعرضون ما تلقنوه من علوم في الغـــرب، أو مـــا ترجمـــوه بسرعة، وستبدأ حكومات الأطراف التابعة هي الأخرى بالتصرف كالببغاوات عـــبر إتبـــاع إجراءات للوقاية من هذا الوباء الزاحف الذي يهدد بإفناء البشرية عن بكرة أبيها!

وبعد حين سيصاب الجميع بالخيبة، فالوباء لم يحدث والبرابرة لـــم يـــأتوا، وقـــد نجـــت البشرية، وسيتنفس الفقراء الصعداء فما أهمية الجوع والفقر وفقـــدان العمـــل مقارنـــة بالموت والفناء. لقد نجونا وبقينا على قيد الحياة وهذا يكفي. وستختفي أخبـــار الأزمـــة المالية عن الشاشات إلى حين، وسيتوقف البشر عن الاحتجاج فما أهمية فقـــدان العمـــل والبيت مقارنة بفقدان الحياة، كما قلنا. وسيبيع رامسفيلد وشركاه بمليـــارات الـــدولارات

دواءً لا نفع له يسمى التامفلو. وبعد حين ستنطفأ نار انفلونزا الخنازير كما انطفأت نار جنون البقر، والحمى القلاعية، والجمرة الخبيثة، ونار السارز وانفلونزا الطيـــور، ومـــن جديد ستبحث الاحتكارات عن مادة جديدة لإضرام نار الخوف القيامي ثانية وثالثة ورابعة لأنه في عصر أزمة النظام العالمي المفتوحة على اللانهاية، وحين تتكدس البضائع وتفلس المصانع والشركات تبقى تجارة وحيدة رابحة هي تجارة الخوف. وحتى يستطيع البشر في كل أنحاء المعمورة كنس هذه الطغمة الحاكمة إلى مزبلة التاريخ يجب أن نستعد لأوبئة و قيامات وهمية كثيرة هذا إن لم يفعلوها بقيامة نووية حقيقية هذه المرة.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية